



خطبة صلاة الجمعة 13 / 3 / 2020 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(غيث وفرج)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: 21-23].

وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: 30].

أيها الإخوة:

مُطِرْنَا أمس واليوم بفضل الله ورحمته، وبمناسبة نزول الغيث وانتظارنا الفرج فإن عنوان خطبة اليوم:

(غيث وفرج)

الغيث، والمطر، والحياة، والديمَّة، والجود، والودق، والوابل، والعين، والرجع، والشَّآيب... أسماءٌ للماء النَّازل من السَّمَاء.

والفرج، والفرح، والسَّعة، والرَّاحة، والرحمة، والشرح، والعون، والعافية، والتيسير... عطاءٌ يرجوه العباد من ربِّ الأرض السَّمَاء.

والغَيْثُ مذكور في القرآن في عدة مواضع، وهو لذيق الاسم والمسمى على السمع والروح والبدن، تبتهج الأسماعُ بذكره، والقلوب بوروده، وماؤه أفضل المياه، والطفها وأنفعها وأعظمها بركة. والفرج محكي عنه في القرآن، وهو مأمول ومحبوب ومرجو لكل إنسان، به يرتاح الجسد وتطمئن النفس ويسكن الفؤاد.

جمع القرآن الكريم بين ماء السماء ولحظات الفرج في سورة الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ * إِذِ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 10-11] نزلت في بدرٍ لما أرسل الله تعالى عليهم السماء مدراً، فكان الغيث أول بشارات المعونة والنصر والفرج.

ويجمع بين الغيث والفرج أمورٌ مشتركة، أعرض عليكم بعضها راجياً من أنزل علينا الغيث برحمته أن ينزل علينا الفرج بمنته.

المشترك الأول: أن المنزّل الوحيد للغيث هو المنزّل الوحيد للفرج وهو الله تعالى:

ففي الغيث قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ * أَلَمْ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمُنِّ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: 68-69].

وفي الفرج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ، أَوْ أُحَدِّثُكُمْ، بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرَبٌ أَوْ بَلَاءٌ مِنَ بَلَاءِ الدُّنْيَا دَعَا بِهِ فَرَجَ عَنْهُ؟» فَقِيلَ لَهُ: بَلَى، قَالَ: «دُعَاءُ ذِي الثُّونِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» [النسائي في الكبرى] وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كَرَبَهُ أَمَرَهُ قَالَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ».

فلا يسقي العطاش إلا الله، ولا يتدارك الملهوف إلا الله، ولا ينزل الغيث إلا الله، ولا يفرج الكرب إلا الله، الأمر أمره، والنهي نهي، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

المشترك الثاني: للغيث وللفرج استسقاء:

فالأول تُندب له صلاةٌ خاصّة، تُردُّ قبلها المظالم، ويتوب الناس ممّا قصّروا به مع ربهم، ويصومون ويخرجون ضارعين بثيابٍ رثّة، منكسرين على باب الله يلهجون بالدعاء والاستغفار.

ويُستمطر الثَّاني بالتَّوبة وترك المنكرات وردَّ الحقوق لأصحابها وعون العباد واللبَّاء إلى الله تعالى.

دعا سيِّدنا العباس رضي الله عنه في الاستسقاء دعاءً يصلح للغيث ويصلح للفرج؛ فقال: (اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَنْزِلُ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا يُكْشَفُ إِلَّا بِتَوْبَةٍ، وَقَدْ تَوَجَّهَ الْقَوْمُ بِي إِلَيْكَ لِمَكَانِي مِنْ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذِهِ أَيْدِينَا إِلَيْكَ بِالذُّنُوبِ، وَنَوَاصِينَا إِلَيْكَ بِالتَّوْبَةِ فَاسْقِنَا الْغَيْثَ.

اللَّهُمَّ لَا نَرْغِبُ إِلَّا إِلَيْكَ وَحَدِّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ سَعَبَ كُلِّ سَاعٍ، وَغُرْمَ كُلِّ غَارِمٍ، وَجُوعَ كُلِّ جَائِعٍ، وَغُرْيَ كُلِّ عَارٍ، وَخَوْفَ كُلِّ خَائِفٍ).

أخرج أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَزِمَ الْإِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ».

وصحيحٌ أنَّ الاستغفار لفظٌ باللسان؛ ولكنه مقرونٌ بعملٍ بالأركان، واعتقادٌ بالجنان.

للفرج استسقاءٌ كما للغيث، واستمطار الفرج برَدِّ الحقوق لأصحابها والتَّوبة وترك المنكرات وعون العباد واللبَّاء إلى الله تعالى.

المشترك الثالث: حبس الغيث وتأخر الفرج لحكمةٍ إلهيةٍ.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأعراف:94].

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:42-43].

قال المفسرون: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾، البأساء: الشَّدائد؛ كالقحط والجوع والفقر الشَّديد، وتُطلق على ما يُصيب الأمم من أزماتٍ تحتاجها بسبب الحروب والنكبات، ﴿وَالضَّرَاءِ﴾: تُطلق على الأمراض والأسقام التي تصيب الأمم والأفراد.

والمعنى: نأخذهم بالبأساء والضَّرَاءِ تخويفاً لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾، أي: يتذلَّلون ويتوبون من ذنوبهم ويتخشعون لرَّبِّهم.

لكنَّهم لم يفعلوا، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾، أي: هلا تذلَّلوا لله وتابوا إليه حين جاءهم البأس فترحمهم، وفيه دليلٌ على نفع التَّضرع حين الشَّدائد.

﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ، أي صَلَّبَتْ ولم تَلِنَ ، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، فصرفهم عن التَّضَرُّع ، ولم يمنعهم من التَّضَرُّع إِلَّا قسوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم .
فَمِنْ الْحِكَمِ الإلهيَّة لتأخُّر الغيث وتأخر الفرج : استخراج عبوديَّة أولياء الله في السَّراء والضَّراء ، وعودة العاصين إلى ربهم بالتوبة ، وأن يَحَقِّقَ القول على الكافرين وعلى الباغين الطَّاغين .
هذه ثلاثٌ مشترَكَاتٌ بين الغيث والفرج : مُنَزِّلُهُما واحدٌ ، ولهما استسقاءٌ ، وتأخُّرهما لحكمةٍ ،
وسبحان مَنْ قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾
[الشورى:28] وقال سبحانه : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر:21] .

والحمد لله رب العالمين